تعليق على كتاب (أيمن الظواهري كما عرفته)

بقلم/ د. هاني السباعي

مدير مركزالمقريزي للدراسات التاريخية

لقد أثار كتاب (أيمن الظواهري كما عرفته) للأستاذ منتصر الزيات المحامي منذ أول حلقة منذ الحلقة الأولى ضجة كبرى في الشارع الثقافي وهذا مؤشر حسن على تفاعل العالم الثقافي مع أطروحة الكتاب سلباً وإيجاباً.

ولما كنت قرأت الكتاب وتابعت حلقاته بل قدمت للكتاب تقدمة شرفت بكتابتها.. ولما انتهت حلقات نشر الكتاب لم أشا إلا أن أقدم تعليقاً حتى تستقيم الفكرة ويستفيد القارئ من تبادل وجهات النظر.. وألخص تعليقي على الكتاب في النقاط التالية:

أولاً: الكتاب خليط من السيرة الذاتية والتأريخ للحركة الإسلامية بطريقة غير مقصودة وقراءة منهجية في فكر الدكتور أيمن الظواهري مع نقد ذاتي للتغيرات الجزئية التي طرأت علي أولويات الدكتور في مرحلة تحالفه مع الجبهة العالمية وما بعدها.. فالكتاب أنموذج لطريقة أدب الخلاف في الحركة الإسلامية المعاصرة وإن تخلل فصول الكتاب قسوة لفظية غير متعمدة وإن كنا لا نحبذها.

ثانياً: لقد استهل أخي الأستاذ منتصر الزيات كتابه بما يناسب طبيعة عمله كمحام إذ بدأ بالجلسة الأولى لمحكمة أمن الدولة العليا التي عقدت في أرض المعارض بمدينة نصر يوم 4/12/1982 حيث تحدث الدكتور أيمن أمام هيئة المحكمة عن محنة الشاب القابع في الزنزانة رقم 3 في سجن القلعة الشهير وكان ذلك الشاب منتصر الزيات الحبيس زنزانة انفرادية في ذلك الباستيل المصري في تلكم الفترة.

اختار الزيات هذه الحادثة ليلتقط خيط التعارف بينه وبين الدكتور أيمن ليعلم القارئ أن المعرفة قديمة وأن الدفاع كان مجرداً خالصاً لله وحده.. وأن المناسبة كانت المحنة.. يذكرنا الزيات بأنه لم ينس هذا الدفاع النبيل

من ذلك الرجل الكريم الظواهري ومن ثم توطدت العلاقة الأخوية. وكأن الزيات يمهد لحديثه على طريقة أهل المحاماة فيما يسمى بتهيئة الدليل.. فالزيات يعلم أنه سيقسو أحياناً في زوايا الكتاب بل سيخصص فصلاً قاسياً عن موضوع المبادرة.. لذلك أزعم أن أخي الزيات كان موفقاً في هذا الإستهلال وفي حديثه عن نشأة الدكتور وبيئته ووسطه الإجتماعي وأكاد أزعم أن الفصل الأول وأصل التربية وإبراز بعض المواقف الطيبة والهامة في حياة الظواهري وخاصة من أرشيف التحقيقات هو من قبيل تقديم الشفاعة وخاصة لأبناء الحركة الإسلامية حتى لا يظن ظان أن الزيات يصفي حساباً مع الدكتور أيمن برده على ما ذكره الدكتور أيمن في كتابه (فرسان تحت راية النبي) من غمزه ولمزه في حقه أو أنه يستغل الأحداث الجارية في العالم.. قدم الزيات هذه التقدمة وتكلم عن نشأة الدكتور أيمن وحسن دماثة خلقه ومرجعيته الشرعية والعلمية ونبوغه الدراسي والمهني.. ليكون شفيعاً له عندما يصل القارئ إلى بعض عبارات القسوة والنقد اللاذع أحياناً وليعلم القارئ أي قارئ أنه وإن نقد الزيات الدكتور أيمن في جوانب من فكره أو أغلظ له القول في بعض الأحايين.. فإنه لا يقصد الحط من قدر الظواهري ولا التقليل من دوره التاريخي كعلامة بارزة في تاريخ الحركة الإسلامية.. وفي نفس السياق يوضح الزيات للقارئ أنه لا قداسة لأحد من البشر بعد الرسل.. وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا الأنبياء عليهم السلام.

ثالثاً: تكلم أخي الأستاذ منتصر ودندن حول قضية اعتراف الدكتور على مكان الأخ الشهيد عصام القمري كثيراً عقب اغتيال السادات واستدل بما قال بنتف من تحقيقات قضية تنظيم الجهاد بما يوحي أن الدكتور أيمن أصيب بعقدة الذنب وتأنيب الضمير فقرر السفر مع أول فرصة أتيحت له بعد خروجه من السجن مباشرة!!

وهذا استدلال لا أوافق للأسباب الآتية:

أ) أنه لا يجوز الإستشهاد بأقوال المتهم في تحقيقات مباحث أمن الدولة ولا حتى نيابة أمن الدولة لا شرعاً ولا قانوناً فهي اعترافات مهدرة لأنها وليدة إكراه وكانت نتيجة مرحلة معينة والأستاذ منتصر ذاته أحاط هذا الموضوع بيساج وتحفظ أشبه بالدفاع عن الدكتور أيمن بقوله أنه قد عذب

وأنه معذور شرعاً لكنه خلص بنتيجة لا تتفق مع تحفظه وعذره للظواهري أي أن الظواهري أصيب بعقدة نفسية فقرر السفر إلى الخارج!!

ب) هناك عشرات ومئات الإعترفات ـ الأستاذ منتصر مطلع عليها ـ انتزعت من قادة الحركات الإسلامية علىاختلاف مشاربهم نتيجة الإكراه والتعذيب الرهيب لدرجة أننا كنا نتندر أحياناً بضرب أمثلة عن الإخوة الذين يشهد لهم التاريخ المعاصر أنهم لم يعترفوا رغم ما لا قوه من أهوال التعذيب وهم معدودون على الأصابع مثل: نبيل نعيم ومحمد عبد الرحيم الشرقاوي وقلة أخرى.. فلو أنزلنا ما ذكره أخي الأستاذ منتصر على كل من اعترف نتيجة التعذيب لكانت النتيجة سلبية جداً إذ سنتهم معظم هؤلاء الأخوة الأفاضل وكل من هاجر منهم إلى أفغانستان ولبى نداء الجهاد في سبيل الله بأنهم مصابون بعقد نفسية!! وهذا محال طبعاً نظراً لشرف القضية وشرف الباعث!!

ج) هناك أخوة كانوا شهوداً وعاصروا هذه القضية بل كانوا طرفاً فيها كالأخ الفاضل الضابط عبد العزيز الجمل كان طرفاً فيها وفي موضوع الشنطة وطريقة القبض عليهم، وكان مع إخوانه الضباط في السجن الحربي وصديقاً حميماً أيضاً للشهيد عصام القمري ورغم ذلك لم تؤثر فيه هذه الحادثة وتعامل مع الظواهري وكان الدكتور مسئولاًعنه وتحت إمرته أيام أفغانستان ولم يثر هذه القضية بل كان يجل الدكتور أيمن رغم أنه من المفروض أنه أضير أيضاً في كشف تنظيم الضباط لو أخذ هذه الإعترافات مأخذ الجد لكان في استطاعته أن يهاجم الدكتور ولا يرضى أن يمثله خاصة في تشكيل الجماعة من جديد في أفغانستان في 1987. كما أن هناك بعض الإخوة كانوا مقربين للشهيد عصام القمري كنبيل نعيم وأحمد سلامة مبروك وغيرهم رضوا بإمارة الدكتور أيمن رغم علمهم بهذه الإعترافات.. إذن دعوى أن الدكتور أصيب بعقدة نتيجة الإعتراف بمكان الشهيد عصام القمري وآخرين دعوى لا يصح الإستدلال بها على موضوع العقدة المزعومة!!

رابعاً: اختار أخي الأستاذ منتصر الزيات محطة هامة في تاريخ الحركةالإسلامية الجهادية المعاصر وهي هزيمة حزيران 1967 اختارها ليجعلها منطلقاً للحركات الإسلامية الجهادية بصفة خاصة ولتكون دافعاً

ومنطلقاً أيضاً لمنطلق الظواهري الفكري، ليختار طريقه الذي رسمه لنفسه في الشروع في تكوين أول خلية تنظيمة لجماعة الجهاد عام 1966 وعقب الحكم بقتل الشهيد سيد قطب مباشرة.. ورغم وضوح هذه الفكرة التي يتفق عليها العقلاء.. إلا أنه من المضحكات المبكيات في مصر أن كاتباً مشبوهاً طفح بقلمه المسموم عبر صحيفة عريقة تحت الوصاية الحكومية.. تعلق هذا الكاتب بقميص عبد الناصر!! وراح يكيل السباب والشتائم للأستاذ الزيات لأنه تكلم عن معبوده من دون الله الزعيم الملهم جمال عبد الناصر!! والذي أثار حفيظة هذا الكاتب الملاكي أن الزيات وصف الزعيم بالصنم!! قرأت مقالته المسمومة طولاً وعرضاً حتى أجد رداً موضوعياً لم أجد إلا الجهل بالأمور والتعلق بسفاسف الأمور والدفاع عن الزعيم الخالد الذي دمر أمة من المحيط إلى الخليج!! وأفرز نبتاً شيطانياً لا يمت لأمته بصلة؛ يتعلقون بشعارات عفا عليها الزمن كالناصرية وأخواتها!! وهذا الكاتب الملاكي الذي صار على حين غفلة من الزمن من علية القوم ساهم ومن على شاكلته في مسخ هوية الأمة!! والعجب العجاب أنهم يرفعون ذكر المنهزمين دائماً وويسبحون بحمدهم!! ويصفقون لجلاديهم على طول الخط!! ولله في خلقه شؤؤون!!

لقد تأثر الظواهري في مقتبل الشباب ورغم حداثة سنه بهذه الهزيمة النكراء التي حلت بالأمة على يد الزعيم الملهم عبد الناصر!! أثرت فيه هذه الهزيمة وعلم أن العار الذي لحق بهذه الأمة هو من تفريطها في حق دينها، ومن جراء تسلط هذه الأصنام التي تعبد من دون الله!! انطلق من باب الفطرة الطاهرة ينهل من معين هذا الدين القويم.. انطلق وقد علم معالم الطريق من سيد قطب رحمه الله..

لم يكن الظواهري منطلقاً من الإحباط واليأس.. ليس هذا صحيحاً كما يظن بعض البكائين على قميص عبد الناصر!! وهذا ما لم يتسطع فهمه الكاتب الملاكي! كيف فتى في مثل هذا السن أن تؤثر فيه هذه الحوادث الجسام؟! لم يعرف هذا الكاتب أن الكبار يولدون كباراً.. ولو تابع كتاب أخي الزيات لنهاية الحلقات؛ لخرج على الأقل بنتيجة قد تنفعه في حياته المهنية!! لكنه اكتفى بالحلقة الأولى التي نشرتها الحياة.. وطفق يحلل ما لم يقله الزيات وأثبت الرجل جهلاً مركباً!! فالزيات ذكر عن تنشئة

الظواهري منذ نعومة أظفاره وحاله يختلف عن بقية الأطفال والأقران طفل محب للقراءة، متابع لأعمال الكبار، يعيش بين الكتب ولا يبرح مكتبة أجداه العظام .لا غرو إذن أن يتأثر هذا الشاب بهزيمة حزيران 1967 ويحمل هم هذه الأمة لأن هذا ناموس الكبار وإلا لما وصل الظواهري إلى هذه المنزلة الرفيعة.. أما هذا المتاجر بقميص ناصر فقد قبب الحباب وعمل من الحبة قبة وابتسر جملة من سياقها السليم وشرع يبني عليها تحليلات من باب(فويل للمصلين)!!

رابعاً: موضوع المبادرة:

أعتقد أن هذا الموضوع هو أس الخلاف بين الدكتور أيمن والأستاذ منتصر.. وليست هذه المرة الأولى التي انتقد فيها الدكتور أيمن الأستاذ الزيات ففي نشرة كلمة حق التي كان يصدرها المكتب الإعلامي لجماعة الجهاد انتقدوه واعتبروه وراء هذه المبادرة بل وعرابها.. لكن الدكتور أيمن لم يتجاوز أكثر من النقد والتلميح.. وكان لا يرى القسوة على الأستاذ منتصر نظراً لظروفه وكان يقدرها.. رغم إلحاح بعض الإخوة من جنسيات أخرى أن يهاجم الدكتور أيمن الزيات ويخرج بيان ليزجره.. لكن الرجل رفض حسب شهادة المقربين..

وأعتقد أن هذا ما يتفق مع طبيعة وتكوين الدكتور أيمن النفسية والخلقية وأنه لا يتصادم مع أحد بل إنه من أشد الناس حياء رغم علو كعبه في اللغة والبيان والشعر والأدب إلا أنه لا يرفع عينيه لمتحدثه ولا يتكلم إلا بأحسن الألفاظ ويحترم الصغير والكبير وهذا متواترعنه ولا حاجة للإستدلال عليه.. من أجل ذلك أصابتني دهشة وأنا أقرأ كلامه في كتابه (فرسان تحت راسة النبي صلى اله عليه وسلم) وعبارات الغمز واللمز للأخ منتصر الزيات.. دهشت لهذا الأمرالغريب على سلوك الدكتور حتى مع خصومه .لا يحب تجريحهم ولا التشهير بهم.. وهناك حوادث بل وطامات كادت أن تعصف بالجماعة ورغم ذلك لم يصدر بياناً بفصل هؤلاء الذين انشقوا عن الجماعة كالأخ الصيدلاني أحمد حسين عجيزة عندما أعلن انشقاقه عن الجماعة وحدثت فتنة كبيرة من جراء ذلك سنة 1993 وطلب المجلس التأسيسي للجماعة من الدكنور أن يكتب بياناً يعلن فيه فصل الأخ أحمد حسين قبل أن يعلن أحمد حسن انشقاقه علانية ويكون سيئاً في حق الجماعة لكن

الظواهري رفض وقال لا نعين عليه الشيطان ولا نكون البادئين.. وهناك عدد من الإخوة أضروا بمركز الجماعة جداً وأعلنوا تمردهم ورغم ذلك لم يخرج بياناً بانفصالهم!! أما ما ذكره في حق الأخ منتصر الزيات في كتابه فرسان تحت راية النبي .. فهذا الأمر دخيل على سلوك الدكتور وأعتقد أن الطبيعة الجبلية في أفغانستان والصحراء القاحلة والغربة الموحشة والأرض المقفرة، وحياة الحرب الضروس.. وغياب أهل المشورة من حوله.. كان له أثر كبير في هذا التغيير.. لقد كان يحيط بالدكتور خمسة وعشرون مستشاراً.. وتمرالأيام ويتقلص هذا العدد بعد تفرق أفراد الجماعة في الأرض إما بالسجن أو القتل أو المطاردة أو الإنشقاق.. إلى خمس إخوة تقريباً يقلون ولا يزيدون.. لقد فقد الدكتور أحب الناس وأقربهم إليه شقيقه المهندس الصوام القوم محمد الظواهري الذي خطف من إحدي الدول العربية وسلم إلى مصر.. و فقد أحمد سلامة مبروك الذي خطف من أذربيجان.. وفقد أخوة أفاضل كانوا عوناً له وكانوا نعم أهل الرأي وأهل المشورة.. وهذا ما يفسر لنا تغير خطاب الدكتور في كتابه الأخير وهو يناقش قضية مبادرة وقف العمل المسلح..

وهذا أيضاً سر قسوة بعض عبارات أخي منتصر الزيات على الدكتور أيمن في بعض فصول الكتاب.. من حق الزيات أن يدافع عن نفسه لأن غمز ولمز الدكتور ووصفه للزيات بحصوله على تسهيلات لا يحصل عليها الوزراء في زيارة السجون.. ليس اتهاماً هيناً.. فلا أحد يلومه في دفاعه عن نفسه وعن موقفه.. فهو في نهاية الأمر ابن الحركةالإسلامية وواضع لبنة أساسية فيها وليس متطفلاً عليها.. وروح الإسلام لا تمنع النقد الذاتي البناء..

أما عن تحريض الدكتور للأخ الفاضل رفاعي طه أمير الجماعة الإسلامية السابق.. فليس في محله لأن الأخ رفاعي رجل كبير ومن قادة الحركة الإسلامية وليس قاصراً أن يحرضه الدكتور الظواهري لإفشال مشروع المبادرة.. فالأخ رفاعي طه كان على خلاف مع جماعته بعد حادثة الأقصر وتم إقصائه من قيادة الجماعة وأعلن رأيه صراحة عبر وسائل الإعلام وألف كتاب إماطة اللثام للرد على بعض آراء جماعته بخصوص السياحة والأمان وأحكام خاصة بالكفر والإيمان بل إنه اختلف مع الجماعة

الإسلامية في حكم الدار (مصر) وتبنى آراء مغايرة للجماعةالإسلامية لا دخل للدكتور أيمن فيها.. فالأخ رفاعي طه باحث وفاهم ما يكتبه وعلى دراية تامة بما يصدر عنه من قول أو فعل..

خامساً: أما عن الحلقة قبل الأخيرة المتعلقة بقضية قتل الصبي الذي جندته المخابرات المصرية: أعتقد أن الإستنتاج لم يكن سليماً إذ أن هذا الصبي كان بالغاً وتم الكشف عليه قضائياً طبقاً للشريعة الإسلامية وتم تعيين قاضي مختص للنظر في قضية هذا الفتى، وتبين أن الجماعة حققت معه على عدة مستويات وأعطته الفرصة لكي يتوب وتركته رغم أنه قبض عليه متلبساً لكنه أصر على المضي في مخططه وحاول تجنيد بعض الفتية وتم القبض عليه متلبساً مرة أخرى قبيل تنفيذ جريمته بيوم واحد تقريباً، وهذه القضية يعلمها معظم المتابعين للحركات الإسلامية حيث أصدرت جماعة الجهاد مذكرة تفصيلية بما حدث ونشرت حيثيات الحكم فيها، واطلعت شخصياً على هذه الحيثيات مع شريط فيديو يحتوي علىاعترافات المتهم وفتى آخر معه هو الذي جنده في أول الأمر.. ويعلم تفاصيل هذه القضية عدد غفير من أبناء الحركات الإسلامية من جميع الجنسيات العربية والإسلامية.. نخلص من هذا أن الدكتور أيمن لم يكن له دخل في هذه القضية ـ حسب المستندات وشهادة الشهود التي أعلنوها في حينها ـ ولم يأمر بقتل الصبي بل هو شخصياً فوض أمر هذا الفتى البالغ إلى الهيئة القضائية.. مع العلم أن هذه القضية استمرت عدة أشهر.. وهذا يعني أن القضية كانت كبيرة وليس هذا مقام الحديث عنها تفصيلياً.

سادساً: تحالف الظواهري مع ابن لادن:

هذه أهم مرحلة تاريخية وهي من المراحل التي يجب أن نتوقف عندها لأنها تفصل بين مرحتلين في فكر الدكتور أيمن؛ مرحلة ما قبل التوقيع على بيان الجبهة العالمية والدخول في حلف مع الشيخ أسامة بن لادن وما بعد هذا التوقيع.. وأوافق الأستاذ منتصر على أن هذا التحالف قد أضر بمركز جماعة الجهاد كتنظيم وتسبب في خسائر جسيمة لم يكن لجماعة الجهاد ناقة ولا جمل ولا مشورة في هذا التحالف.. فإذا كانت الخسائر ناجمة عن رضا الجماعة وافراغ وسع أفرادها قدر الإستطاعة الشرعية

وبمشورة أهل الحل والعقد فيها لا ختلف الأمر كثيراً.. لكن الموضوع تم بغير إرادتهم أوكما قال الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم *** ولا يستأمرون وهم شهود

أخيراً:

مما لا شك فيه أن الكتاب ثري بموضوعه وسيثير ضجة في أوساط المثقفين على اختلاف ألوان الطيف السياسي بين مؤيد ومعارض ومنصف، بين متحامل على المؤلف وصاحب السيرة وبين مدافع عن أحدهما أو كليهما.. وبين هذا وذاك يلتقط المنصف ما ينفعه من الكتاب ليعينه على تصحيح المسير..

وصفوة القول : يعتبر هذا الكتاب باكورة هامة لمشروع كتابة تاريخ الحركة الإسلامية.. كما أنني من المؤيدين لفكرة أخي الأستاذ منتصر الزيات التي بثها بين ثنايا سطور الكتاب حول الدعوة إلى مراجعة الحركات الإسلامية لأدبياتها وتقويم مسيرتها تقويماً حقيقياً ووقفة مع النفس لحصاد السنين في عمر الحركة.. بعيداً عن إعمال المشاعر والعواطف التي قد تكون عائقاً أمام تقبل نقد الذات والإعتراف بالأخطاء ومحاولة تصحيحها وتجنبها مع معالجة الآفات التي تعترض انطلاقة الحركة الإسلامية لتكون في طليعة الأمة الإسلامية ونهضتها..